الفصل الثامن عشر

الكاتب المؤتمن [1]

نلمح فى ثنايا هذه المسرحية تضحية إليوت بالقيمة الشعرية ، فالكلمات بنبراتها ووقعها أقرب إلى النثر منها إلى الشعر ، كما أن الأبيات أصبحت أكثر طوعاً لبنائه بالنسبة للمسرحية السالفة وهى « حفل الكوكتيل » . هذا إلى أن إليوت قد أولى الحبكة المسرحية اهتماماً زائداً . ومن ناحية شخوص المسرحية نجد أنه قد أقلع عن فكرة العملاق الذى تلتف حوله بقية الشخصيات ونعنى بذلك السير هنرى الطبيب النفسانى وعلاقة الشخصيات الأخرى جميعها به فى مسرحية « حفل الكوكتيل » وكيف أنهم يتحركون حول نقطة الارتكاز هذه بل إنهم يتصرفون بناء على مشورته وطبقاً لنصائحه حتى بدوا وكأنهم أقزام بالنسبة له .

وقد ظهرت هذه المسرحية لأول مرة فى احتفال أدنبرا الذى استمر من اليوم الخامس والعشرين من أغسطس إلى الخامس من سبتمبر سنة ١٩٥٣ . وتبدأ أحداثها فى مكتب السير كلود موخامار رجل الأعمال ومعه سكرتيره الخاص أجرسون . نفهم من الحوار بينهما أن أجرسون على وشك الإحالة إلى المعاش بعد ثلاثين عاماً قضاها فى الخدمة المتواصلة . وقبل أن يتقاعد أجرسون ويسلم مهام منصبه إلى خلفه الكاتب الصغير كولبى سمكنز ، طلب منه السير كلود أن يؤدى له خدمة أخيرة إذ أن زوجته الليدى إليزابيث ستعود فى المساء من سويسرا وعليه أن يستقبلها فى المطار ويخبرها فى الطريق إلى المنزل أن كولبى الشاب الصغير الذى يهوى الموسيقى سيخلفه فى وظيفته . إن شيئاً واحداً سيحتفظ به فى طى الكتمان وهو ألا يخبر الليدى إليزابيث بأن كولبى هو الابن غير الشرعى

---

(١) *The Confidential Clerk*

لزوجها السير كلود . ومما يزيد المسألة تعقيداً أنها تعلم من قبل أن زوجها له ابنة غير شرعية تدعى لوكاستا أنجيل ، كما أنها هى (أى الليدى إليزابيث) لم تنجب من السير كلود أطفالاً وإنما لها ابناً غير شرعى قد اختفى ولم تعرف له مكاناً . إن لوكاستا مخطوبة وستتزوج عما قريب من كاجان الشاب المرح الذى ينتظر الجميع له مستقبلاً باهراً فى الأوساط المالية بلندن .

وبخروج السير كلود لإنجاز بعض أعماله يدخل كاجان ومعه خطيبته لوكاستا التى تلتقى بكولبى للمرة الأولى فتخبره أنها كانت تعمل بإحدى المؤسسات لكنها فصلت لإهمالها ، ولما شعرت بالحاجة والعوز جاءت تطلب شيئاً من المال لتسد رمقها وليساعدها على مواجهة أعباء الحياة . ولما طلبت من أجرسون الذى شاهد هذه المناقشة بينها وبين كولبى أن يساعدها فى الأمر ، أخبرها بأنه قد أحيل إلى المعاش ، وأن كولبى لا يمكنه التصرف إلا بإذن السير كلود الذى يصر على أن يتصرف فى مثل هذه المشكلات بنفسه . ولهذا فإنه ينصحها بانتظاره . وبعد خروجها مع خطيبها يعلم كولبى من أجرسون أنها فتاة مسهّرة وأنها عبء ثقيل على كاهل السير كلود ، لكن أجرسون يخفى عليه حقيقة الأمر بأنها ابنة السير كلود غير الشرعية .

وفجأة تدخل الليدى إليزابيث فى اللحظة التى فيها يهم أجرسون بالذهاب لاستقبالها فى المطار ، ويعلم أجرسون والسير كلود أنها غيرت خطتها وجاءت بالقطار إلى محطة فيكتوريا بلندن ، ذلك أن صديقتها ميلدرد ديفيريل التى كانت معها فى أوربا وجاءت معها إلى لندن لا تهوى ركوب الطائرات ، فهى كثيراً ما تصاب بدوار فى رأسها عند ركوب الطائرة . ويتظاهر أجرسون بأنه ترك الخدمة لاعتلال صحته ، وهنا تحملق الليدى إليزابيث فى وجه كولبى الذى سيخلفه ، وتتفرس فيه المرة بعد الأخرى ، ثم تنتقل فى حديثها من موضوع إلى آخر دون أن يكون هناك أى ترابط بينها فهى مصابة بفقدان الذاكرة ، وقد سافرت إلى سويسرا للعلاج من هذا المرض النفسانى . فهى تارة تتحدث عن

تناسخ الأرواح وعن النبابيين ثم البصيرة والإلهام والأمور الخارقة للعادة .

وبخروجها ثم خروج أجرسون يخلو المكان لكولبى والسير كلود الذى يقول لكاتبه إنه فى صباه كان يهوى صناعة الخزف ، وإنه كان يتخذ من الفن ذريعة للتخلص من عالم الواقع المرير . فالفن فى نظره هو المنفذ الوحيد الذى نطل منه على عالم المثل ، لكن والده قد غير مجرى حياته فاتجه إلى الأعمال المالية . وبالنسبة لكولبى أيضاً فقد كان يهوى الموسيقى ، وكان بوده إشباع هذه الرغبة لكن الظروف لم تكن مواتية . وهنا نلمح التقاءهما فى رغبة كل منهما الجامحة لإشباع هذه الميول الفنية ، ففى إشباعها كما يقول السير كلود « تطلع إلى عالم الرؤيا حيث الحقيقة الكلية كامنة . » وهو بالإضافة إلى ذلك يحتفظ ببعض القطع الخزفية الفنية فى حجرة خاصة بمنزله حتى إذا ما خلا لنفسه وتأمل فى روعتها وجمالها ازداد إيماناً بوجود الخالق وبقدرته على إبداع هذا الكون العجيب . ويخرج من هذه النشوة الروحية بشعور فياض بالاتحاد مع عالم « الحقيقة » وبقبول عالم المرئيات على علاته بل واحتمال ما فيه من منغصات بصبر وأناة . إن فى التململ هروب من الواقع ، أما القدرة على الإعلاء فهى التسامى فوق الواقع . والعالم الذى هربت إليه الليدى إليزابيث أو بالأحرى ذلك العالم الذى فرض نفسه عليها فرضاً ، هو عالم الخيالات وهو لا يمت للواقع بأدنى صلة ، فلا غرو إن ذهبت إليزابيث ضحية لتلك الهواجس التى تختلقها .

أما فى الفصل الثانى فإننا ننتقل إلى مسكن كولبى ونعلم من الحوار بينه وبين لوكاستا أنها معجبة بشخصيته وأخلاقه وتلبيته لنداء الواقع حينما ترك هوايته الموسيقية المفضلة والتحق بوظيفته الجديدة ليعمل كاتباً للسير كلود . إنها تحس براحته النفسية وتصارحه بأنها تحسده عليها ، وتشعر أيضاً بأنه مسيطر تماماً على عالمه الداخلى الذى تطلق عليه باسم « البستان الخفى » الذى يهرع إليه كلما تعقدت الأمور واشتدت الأزمات . أما هى فلقد أصبحت حياتها كالريشة فى مهب الرياح تتقاذفها الأمواج يمنة ويسرة ، فهى تحس بوجودها وبكيانها بصعوبة

بالغة . وتتبين فى آخر الأمر أن السبب فى ذلك مرده إلى ما ينقصها من معرفة وإحساس بقيمة الفنون . فتطلب من كولبى فى إلحاح أن يدعوها إلى الحفلات الموسيقية بل ويلقنها شيئاً عن أصول الموسيقى وتطورها .

ترى هل هذا هو الفهم الصحيح لما تصبو إليه أنفسنا لمعرفة « الحقيقة » ؟ لقد طمأن كولبى لوكاستا على مسلكها فى هذا الاتجاه ، واستراح فؤادها حينما عرفت منه أنها أحسن حالاً من غيرها فى فهم تلك المشاكل . وأمام هذا الإقناع شعرت برغبة ملحة فى داخلها أن تفصح له عن أسرارها إذ أنها ركزت فيه كل ثقتها ، فتخبره بأنها ابنة السير كلود غير الشرعية ، وكيف أنها تكره والدتها بل وتمقتها لسوء خلقها ، فلقد كانت تشرب الخمر وتلعب الميسر بالنقود التى كان يرسلها لها السير كلود شهرياً . فاستدانت والدتها واضطرت لتغيير مسكنها عدة مرات . وأخيراً توفيت فى نوبة من نوبات الإفراط فى شرب الخمر ، ولم تتجاوز لوكاستا إذ ذاك سوى الثامنة من عمرها ، فتعهدها أبوها بالتربية . ولما كبرت شعرت بنظرات الخجل تلاحقها فى كل مكان وحتى أبوها كان لا يتصور رؤيتها أمامه . لقد نبذها المجتمع ونفر منها ، وعاشت تلك السنوات الماضية فى حسرة وألم إلى أن تعرف بها كاجان فأزال عنها تلك الغمة الثقيلة التى وطأت على قلبها وكادت أن تكتم أنفاسها . ومع أنها شعرت بشىء من الراحة النفسية بعد خطوبتها إلا أن الإحساس بالماضى قد عاودها مرة أخر ، وكلما صممت على الفرار منه ازداد ملاحقته إياها وسيطرته عليها فى قوة وعنفوان . وأمام يأسها رأت أن تفصح لكولبى بكل شىء عن ماضيها .

وبدخول كاجان يعلم منه كولبى أنه كان طفلا لقيطاً لا يعرف أبويه ، ولهذا فإنه يبذل جهد طاقته فى سبيل أن يشعر المجتمع بوجوده وبكيانه . وهو الآن يشق طريقه بنجاح فى مجال الأعمال التجارية والمالية بلندن . وبعد خروج كاجان وخطيبته تدخل ليدى إليزابيث وترى صورة معلقة على الحائط ذات إطار فضى ، فيخبرها كولبى أنها صورة خالته التى قامت بتربيته ، ذلك أنه

لا يعرف أبويه ، فلقد كان هو الآخر طفلاً لقيطاً أيضاً وماتت والدته عقب ميلاده مباشرة . وكانت خالته وتدعى مسز جازارد تسكن فى بلدة تيدينجتون بالقرب من لندن ، وهى تعيش بمفردها بعد أن توفى زوجها ، فأخذت ترعاه إلى أن شب عن الطوق . وكان السير كلود يرسل لها شهرياً نفقات المعيشة والمصروفات المدرسية اللازمة لكولبى .

إن الليدى إليزابيث تظن أيضاً أن كولبى هو ابنها غير الشرعى من صديقها تونى الذى افترسه خرتيت فى تنجانيقا ، وكانت قد عهدت بطفلها فى ذلك الوقت لسيدة تدعى مسز جازارد فى تيدينجتون أيضاً . كما أن كولبى البالغ من العمر خمسة وعشرين عاماً يقرب من سن ابنها المفقود ، ولهذا فإنها ترجح أن يكون كولبى هو ولدها . وعلى ذلك يستدعى السير كلود مسز جازارد وأجرسون أيضاً لإثبات بنوة كولبى .

ويبدأ الفصل الثالث فى منزل السير كلود وتدخل لوكاستا لتعلن زواجها من كاجان . وهنا يرجو أجرسون للعروسين حياة سعيدة ، ثم يعلم كولبى من لوكاستا أنها أخت له وهى تنظر إليه على أنه شخصية تختلف كل الاختلاف عن بقية الأفراد الذين لاقتهم فى حياتها . وبمجىء مسز جازارد يعلم الجميع حقيقة الأمر وأن الطفل الذى كانت تقوم بتربيته لم يكن كولبى ، ذلك أنها أرسلته منذ حداثته إلى جيرانها وهم عائلة كاجان حينما انقطع المبلغ الشهرى الذى كان يصلها لتربية الطفل ، وهى لا تعرف اسم والديه . أما سبب انقطاع هذا المبلغ فهو قتل تونى فى تنجانيقا . وهو بالطبع الابن غير الشرعى لليدى إليزابيث وهو أيضاً خطيب لوكاستا .

أما بالنسبة لكولبى فلقد أذاعت مسز جازارد سراً جديداً عنه وهو أنه الابن الشرعى لها من زوجها هيربرت جازارد ولا يمت بصلة للسير كلود . ولإيضاح الأمر أخبرت السير كلود بأنها كانت حاملاً فى الوقت الذى كان يتردد فيه على أختها التى توفيت بعد قليل والجنين فى أحشائها . وكان السير

كلود فى ذلك الوقت فى كندا فلما عاد أخبرته بأن المولود طفله هو ، ذلك أن زوجها هيربرت توفى ولم يترك لها شيئاً فاخترعت هذه القصة لكى ما ينفق كلود على المولود .

وبعد سماع كولبى هذه الأخبار التى جاءت بها مسز جارارد تنحى عن وظيفته فى مكتب السير كلود ككاتبه المؤتمن ، إذ أن هذه الوظيفة لا تتناسب مع مواهبه الموسيقية . وفى الحال أخبره أجرسون بوظيفة خالية لعازف الأرغن فى كنيسة جوشوا بارك ، فهو يسكن فى هذه المنطقة وينصحه بالتقدم لهذه الوظيفة بدلا من أن يعمل كاتباً . ويحس كلود بالأسى لرحيل كولبى عنه بعد أن عقد عليه آمالا عريضة .

وأخيراً شعر كولبى للمرة الاولى فى حياته بدماء الحرية تدب فى عروقه بعد أن تخلص من السير كلود ومكتبه وزوجته بانفعالاتها وهواجسها . وخرج من منزل كلود حراً طليقاً يسعى لكسب رزقه فى غير تكلف مستجيباً لما تمليه عليه ميوله ورغباته . وقد وعده أجرسون فى شجاعة وكرم أن يخلى له حجرة فى منزله ليقيم معه هو وزوجته إلى أن تستقر أموره .

* * *

هذه المسرحية أو بالأحرى هذه الملهاة تختلف اختلافاً بيناً عن المسرحيات السالفة التى كتبها إليوت . ذلك أن عنصر الشر غير متأصل فى « حبكة » هذه الملهاة ، كما أن مبدأ تكفير الإنسان عن ذنوبه الماضية لا يكوّن ركناً أساسياً فيها . وهى خالية أيضاً من الشعور بالإثم ومن الرغبة فى التسامى والإقلاع عن حب الذات — وهذه العناصر كلها تزخر بها المسرحيات السابقة . أما هذه الملهاة فإنها تتعرض لمشكلة السعادة الفردية وتحقيقها قد يكون تارة على حساب سعادة الآخرين كما هو الحال بالنسبة للسير كلود وكولبى ، أو قد يكون باختيار الطريق المهنى المناسب تارة أخرى كما ترك كولبى وظيفته الأولى ليصبح عازفاً . وهى تعرض لنا أيضاً فكرة التعارض بين الواقعية والمثالية وتبين لنا الصعوبات

الجمة التى تواجهنا فى محاولة التوفيق بينهما ، ويتضح لنا ذلك فى محاولة السير كلود وهو رجل الأعمال التوفيق بين مهامه المالية وميوله الفنية .

وهذه الملهاة تتعرض أيضاً لمشكلة اللقطاء من الوجهة الاجتماعية . وقد اشتق إليوت هذا الاتجاه من مسرحية أيون ليوريبيديس . وأيون هو الابن غير الشرعى لإله الشمس والتطهير أبوللون من السيدة كريوسا التى تنتمى إلى عائلة نبيلة الأصل وهى زوجة إكسوثوس . وبعد مولد الطفل حمله هرميس رسول الآلهة وجاء به إلى أحد المعابد حيث تولته العرّافة المشرفة على المعبد ، وظنت والدته أن الوحوش الضارية قد افترسته . وقد رأى أبوللون أن يهب الطفل لكريوسا وإكسوثوس لأنهما لم ينجبا أطفالاً ، فأمر العرافة أن تعطى الطفل لوالدته التى عرفته فى الحال لأنه كان مقمطا فى اللفائف التى وضعته فيها . ولم يعلم إكسوثوس أن أيون هو الابن غير الشرعى لزوجته من أبوللون . ولما شب أيون عن الطوق تخبره والدته بأن أبوه هو الإله أبوللون . وهنا تنزل أثينا ربة الحكمة عند الإغريق من علياء سمائها لتؤكد صحة الأنباء التى جاءت بها كريوسا .

ووجه الشبه بين الأسطورة الإغريقية وملهاة إليوت واضح كل الوضوح ، فكل من كولبى وكاجان يمثل أيون ، والسير كلود هو أكسوثوس ، والليدى إليزابيث هى كريوسا ، ومسز جازارد هى العرّافة التى سلمت أيون إلى كريوسا بناء على رغبة الإله أبوللون مما يذكرنا فى ملهاة أليوت بكاجان الذى سلمته مسز جازارد لعائلة كاجان بعد أن قتل والده تونى فى تنجانيقا .

لكن مسز جازارد تختلف عن العرّافة فى أنها خدعت السير كلود وسلبت منه أموالاً طائلة لمدة ربع قرن تقريباً على زعم أنها تقوم بتربية ابنه غير الشرعى ، ولولا أنه استدعاها لمعرفة حقيقة الأمر بناء على طلب كولبى وليدى إليزابيث لما أزاحت الستار عن هذا الخداع . لقد تبين فى آخر الأمر أن كولبى هو ابنها الشرعى .